في دمقرطة التعليم

حول العنف والعنف المضاد في غرفة الصف

مشهور البطران

التعليم هو فن سعة الحيلة keneth ebel

أود أن أنوه – أولاً – أن ما اكتبه هنا مجرد انطباعات شخصية، وليس دراسة نقدية لواقع عياني، وثانياً أن ما يدعوني للكتابة في هذا الموضوع هو ذلك اللغط الذي يشرأب في أروقة المعلمين حول ما يسمى بـ «العنف في المدارس».

يتحدث المعلمون عن مفهوم العنف بطريقة لاحيادية مشيرين – عادة – إلى عنف أحادي الاتجاه من المحيط نحو المركز، منكرين العنف المضاد المتجه من المركز صوب المحيط، أو – في أحسن الأحوال – يجدون له تبريراً مناسباً.

في الغالب – أيضاً – يتداولون هذا المفهوم مجرداً من كل متعلقاته، على اعتبار أن العنف فقط هو العنف الفيزيائي، غير آبهين بتلك السلوكيات من قبيل التعنيف اللفظي التي لا تقل تأثيراً عن العنف الفيزيائي، بل هي بوصلته والدفة التي تقود إليه.

* * *

تكثر حوادث العنف في أوساط المعلمين الجدد، وتقل باطراد مع زيادة خبرة المعلم، وتتلاشى تقريباً عندما يمسي المعلم «راسخ الأقدام».

غالبا ما يأتي المعلم الجديد إلى المدرسة الثانوية مسكوناً بهاجس: «أن الطلاب ينتظرونه مشمرين عن سواعدهم بغية اختبار قوته البدنية».

ما مبعث هذا الهاجس؟ هل هم الطلاب؟ هل هم معلمو المدرسة؟

إنني أكاد أجزم بنفي الفرضية الأولى، ومن واقع خبرتي أعتقد أن معلمي الثانويات «الراسخي الأقدام» يحاولون دوماً الترويج لفكرة مفادها: «**إن الطلبة الثانويين ميالون لكل أشكال العنف**».

على هذا النحو، وبمجرد أن يعتب المعلم الجديد أبواب المدرسة الثانوية، يقع بطريقة غير مباشرة في دائرة الرصد والاختبار من قبل الطلبة والمعلمين والإدارة المدرسية، في السياق نفسه يبدأ المعلمون «الراسخو الأقدام» بإهالة سيل من التحذيرات «للقادم الجديد» بضرورة أن يكون منيعاً وصلباً بما فيه الكفاية، وأن يسارع/يصارع لإثبات ذاته من الدرس الأول، لكي يضمن الانضباط في صفه حتى نهاية العام الدراسي.

من سوء الحظ أن كثيراً من المعلمين الجدد يقعون صيداً سهلاً في هذه المكيدة، على هذا الأساس يذهب المعلم إلى صفه مشمر الساعدين، ويختار أحد الطلاب عشوائياً «ليؤدب» به الصف، سيراً على المثل الدارج: «اضرب من بالبور يتأدب من هو بين الغمور»، وهنا تبدأ حلقة من العنف والعنف المضاد لا أحد يعرف متى وكيف تنتهي.

تتفاقم هذه المشكلة في غياب معايير محددة وواضحة لاختيار المعلمين، أغلب الأحيان يتم اختيارهم بسبب النقص في تخصص ما؛ بغض النظر عن الإمكانيات الشخصية والمعرفية لهذا المعلم أو ذاك.

اهتمام أكثر بالجوانب الشخصية

أستطيع أن أتصور الدافع الذي يغري «راسخي الأقدام» للترويج لهذه الفكرة على أنه وسيلة موارية لتضخيم مفهوم الأنا، وطريقة عرجاء لإثبات الذات.

لأسباب اجتماعية صرفة، لا أتصور أن العنف ظاهرة كبيرة في مدارسنا؛ ذلك أن مجتمعنا ما زال محكوماً بإرث المنظومة العائلية التي تمتد تأثيراتها عميقاً في النسيج المؤسساتي، بعكس مجتمعات التكنوقراط التي يكون فيها الفرد محوراً مستقلاً بذاته. هذا التصور لا ينفي – طبعاً – وجود بعض مظاهر العنف ليس فقط في المدارس الثانوية، بل حتى في المدارس الأساسية الدنيا، ولكنها تبقى في إطار الحالات الفردية التي لا تصل بأي حال من الأحوال إلى حدود الظاهرة.

أستطيع القول إن المعلم يحتاج دوماً إلى إثبات ذاته المعرفية بتقديم محتوى معرفي في إطار علاقة إنسانية، ومن الصعب تقبل المعلم – مهما جاهد أن يكون عارفا – بمعزل عن شخصيته الإنسانية، فتقبل المعلم كشخص/إنسان سابق وشرط لتقبله كمعلم، لذا من المهم جداً

أن نولي الجانب الشخصي في التعليم أهميته؛ لما له من عميق الأثر في تأصيل العلاقة الإنسانية داخل غرفة الصف. حس الدعابة أيضاً ليس أقل أهمية، إنه صمام الأمان الذي يحمي بيئة الصف من الجفاف والرتابة.

يتولد العنف – غالباً – كمحصلة لسلسلة من التداعيات: الرتابة .. الكبت .. الفوضى .. تشويش في خطوط الاتصال بين المركز والمحيط .. قمع موجه من المركز إلى المحيط .. عنف مضاد.

إن هذه التداعيات احتمالية ومرهونة بقدر كبير بشخصية المعلم الاجتماعية. من هنا أدّعي أن فن الاتصال من أهم الجوانب الشخصية للمعلم، وهو لصيق الصلة بطريقة التدريس المتبعة.

يبدو أن مبدأ التلقين من أسهل طرق التدريس، لكنها الأكثر عقماً، ومن سوء الحظ أن كثيراً من المعلمين الجدد يلجأون لها لبساطتها من جهة، ولأنها تبرز المعلم وكأنه واعظ مجهد ومتعب في حصته من جهة أخرى. من سوء الحظ أيضاً أن لجوء المعلمين إلى أساليب أخرى كأسلوب طرح المشكلات عادة ما يجابه بإجابات ضعيفة المستوى وملاحظات تثير الشفقة.

على هذا الأساس يجب أن نميز بين نوعين من المعلمين:

- معلم ملقن واعظ واحدي الأسلوب، ومعلم متعدد الأساليب.
- معلم يثير البهجة والمرح، ومعلم صارم يلوك مفاهيم علمية باردة ويجترها ثم يقذفها على مائدة الصف.
- معلم دبلوماسي واسع الحيلة واسع الصدر يسوس الصف بحنكة، ومعلم عسكري متنفذ يقود الصف بالعصا.

إنني أدرك أن كثيراً من المعلمين الجدد يفتقرون لهذه المزايا الشخصية، ولكن في الوقت نفسه يجب التذكير أن التجربة وحدها كفيلة باكتساب هذه المهارات. **إننا لا نولد معلمين ناجحين، ولكننا نصنع ونصقل بالتجارب المتعاقبة.**

السلطة .. الانضباط .. الديمقراطية

أستطيع القول إن التعليم في الظرف الراهن فقد زهوه ومعه فقد المعلم فرادته النوعية التي ظلت تغلف شخصيته بهالة من العظمة طوال الحقب الماضية؛ حين كان التعليم إحدى المزايا الأرستقراطية.

لم يعد التعليم مقتصراً على طبقة النبلاء، بل أصبح كالهواء الذي يتنفسه الجميع، ومع تأميم التعليم اختزلت سلطة المعلم، تلك السلطة غير المباشرة التي كان المجتمع يمنحها للنخب، تمت الاستعاضة عن تلك السلطة الآفلة بلوائح العقوبات التي صيغت في الستينيات ضمن القانون المدرسي، والتي كانت تفتقر إلى الحد الأدنى من الردع. في السنوات القريبة تمت إعادة صياغة لتلك اللوائح دون المساس بجوهرها فبقي المعلم أعزل إدارياً، لا يبدو البديل متوفراً في الظرف الراهن. ضمن هذه الإشكاليات أؤمن بشدة أن المعلم يستطيع أن يصنع سلطته ويمارسها في الوقت نفسه. لكن من الضروري أن يتمتع المعلم بحسن السياسة بعيداً عن تعسف السلطة.

إن أسوأ تجليات السلطة هو إلقاء الأوامر، وأسوأ ما في الديمقراطية هو الانصياع لتلك الأوامر، وهنا يتعارض مفهوم الحرية مع مفهوم الانضباط، وهي معضلة باقية لا تنفع معها إلا حيلة الموازنة بين عنصري الحرية والانضباط.

العناصر الإدارية..

يعتقد الكثير أن ثمة تناسباً طردياً بين الهدوء/الصمت من جهة، والتحصيل من جهة أخرى، ليس ثمة ما يبرهن على صحة هذه الفرضية، وأكاد أجزم من واقع التجربة أن أبأس الصفوف هو الصف الهادئ.

عندما يعتلي الضجيج في أحد الصفوف تعمد الإدارات المدرسية، وكذا المعلمون، إلى الوعظ الأخلاقي للطلبة بضرورة الامتثال لقواعد الانضباط المدرسي، إن مثل هذه الدعوات الوعظية من أكثر الحوافز للشغب، وغالباً ما تأتي بنتائج عكسية.

ثمة أيضاً الكثير من العناصر الإدارية التي تعتبر محفزات للتوتر لكل من الطالب والمعلم على حدٍّ سواء، فالطالب الذي يجلس على مقعد الدراسة ست حصص متتالية في عصف ذهني مستمر بعيداً عن الترويح واللعب، ثم يعود إلى البيت مثقلاً بالواجبات والاختبارات، لا يمكن البتة أن نتوقع منه أن يظل هادئاً طوال العام الدراسي. ولذا، فمن الضروري بمكان إعادة النظر في حصص الرياضة والفن والنشاط الثقافي وتفعيلها بما يليق بمدرسة ثانوية. إن مثل هذه الحصص التي تتسم بروح اللعب من شأنها امتصاص الطاقة الانفعالية ذات الطابع السلبي.

كذلك المعلم؛ فهو ليس أفضل حظاً من طلابه، كيف يستطيع المعلم التعايش مع ثمان وعشرين حصة أسبوعية؟ إنه أمر يبعث على التوتر، إن أسوأ ما في البرنامج المدرسي هو إعطاء حصتين متتاليتين، فهو يحرم المعلم من فرصة المراجعة لحصته السالفة، ويحرمه أيضاً من فرصة الإعداد المناسب للحصة القادمة.

وأخيراً أود أن أشير إلى أن وضع الطالب أمام مسؤولياته أمر من شأنه أن يجنب الأسرة التربوية الكثير من المزالق، فالطالب في منظومتنا التربوية ما زال يعامل كوعاء مفرغ، والمعلم أداة لملء الفراغ، والأهداف التربوية هي معلومات فحسب.

ولذا، فمن الضروري إعادة صياغة العملية التربوية بشكل جديد يضمن تغليب عملية التعلم على عملية التعليم.

مشهور البطران - كاتب ومدرس يقيم في الخليل